٢٠

مدخل الخليج العربى
هرمز ولار وخنجبال وجزيرة قيس وسيراف

لم تطل إقامة ابن بطوطة فى عُمان ، لأنه - أولاً - لم يجد فيها ما تتوق إليه نفسه من لقاء الأولياء والصلحاء والعُبَّاد ، وآخراً لأنه كان على نية الحج ، ويبدو أنه لم يكن هناك درب مطروق بين عُمان والحجاز .

ثم إن ظُفار وعُمان لم يكن لهما رَكْب حُجَّاج ، ربما لأن حكام عُمان كانوا من الخوارج ، فكان على الراغب فى الحج من أهل تلك البلاد أن يذهب إلى نَجْد أو العراق أو اليمن ، ومِنْ ثَمَّ يلحق بإحدى قوافل الحج .

وقد اختار ابن بطوطة طريقاً طويلاً بعض الشىء ، ليصل إلى القطيف ومنها إلى الحجاز عن طريق نَجْد ولا يَدَ لَهُ فى هذا الطريق الذى اختاره ، فمثل هذا الرجل لم يكن حرًّا فى هذا الاختيار ، وإنما كان يسير فى الطريق الميسَّر له أو الذى ييسِّر له الأمان .

وإنه لمَّا يزيدنا إعجاباً بهذا الرجل إنما هو إصراره على السير قدماً وركوب المخاطر دون أن يركن إلى راحة ، فقد رأينا الفرصة تتاح له أكثر من مرة ليستقر فى مهاد الدَّعَة : إمَّا مع أحد الزُّهَّاد - وكان ذلك مهرباً من الحياة شائعاً فى تلك العصور ، أو يستكن فى ظل أمير أو حاكم - وكانت هذه أكبر الأمانى فى نظر المفكرين وأهل العلم فى ذلك الزمان .

الحج قرة عين ابن بطوطة

أما ابن بطوطة فلم يكن طالب دَعَة ولا طالب رِفْد ، إنما كان سيَّاحاً جَوَّالًا ، لذته الكبرى فى التنقُّل ومشاهدة البلاد والعباد ، ثم إن الحج كان قرَّة عينه ؛ يطوف ويطوف ثم يذهب إلى الحجاز قُبيل الموسم ، فيجاور حيناً ويعتمر ثم يحج ، وهنا تطمئن نفسه ويهدأ باله ، وينهض للرحلة من جديد.

وقد قطعنا مع ابن بطوطة إلى الآن قريباً من نصف رحلته ، ولم نلاحظ ما يتحدث به الناس عنه من أنه كان مزواجاً لا يحلُّ فى مكان إلا تأهَّل ، وهذا هو إلى الآن لا يلتفت إلى هذه الناحية إلا بالقدر المعقول ، فما رأيناه يتزوج إلى الآن إلا مرتين فى بداية رحلته . إنما سيحدث هذا فيما بعد ، خلال الثلث الأخير من رحلته عندما يدخل بلاد الترك ثم الهنود ثم جزائر ذيبة المهل وهى الملديف ، وسيكون ذلك جزءاً من تغيُّر عام شمل حياة ابن بطوطة وشخصيته ، وسنتحدث عن ذلك فى حينه .

وسلطان عُمان فى أيامه هو أبو محمد بن نبهان من أزد عُمان ، والمشهور فى كتب التاريخ أن سلسلة الأئمة الأزديين أصحاب عُمان وقاعدتهم نزوى - انقطعت فيما بين سنتى ١١٥٤ و ١٤٠٦م ، وحَلَّ محلَّهم بنو نبهان وقاعدتهم مَقِنْيات فى إقليم الزاهرة ، ولكن كلام ابن بطوطة يدل على أن بنى نبهان أزديون أيضاً ، وأن العاصمة استمرت فى نزوى ، وهذه النقطة فى حاجة إلى تحقيق ، ومن الممكن أن يكون ابن بطوطة قد خلط فى هذا الموضوع .

وعلى أىِّ حال فإن رحَّالتنا غير راضٍ عن أبى محمد بن نبهان هذا برغم أنه يقول إن له أخلاقاً حسنة ، ولكنه يروى عنه حكاية لا تُصدَّق ، وهى أنه كان يُجير المرأة الفاسدة على أهلها ويعينها على فسادها ويحميها من أهلها !

ويبدو أنه زار الكثير من مدن عُمان ؛ لأنه يقول : «ومن مدن عُمان مدينة زكا لم أدخلها ، وهى - على ما ذُكر لى - مدينة عظيمة ، ومنها القريات

وشُبا وكَلْبا وخورفكان وصُحار ، وكلها ذات أنهار وأشجار وحدائق ونخل ، وأكثر هذه البلاد فى عمالة هرمز » (ص ٢٦٣) .

وملاحظته فى محلِّها ؛ لأن إمامة عُمان لم تكن تشمل إلا الدواخل دون السواحل فى الركن الجنوبىّ الشرقىّ من جزيرة العرب . وكان الجبل الأخضر قلب بلاد الإمامة ومعقلها ، وكانت تتبع إمارة عُمان بعض مدن الساحل الجنوبىّ مثل مسقط ومطرح .

هرمز وسلطنتها

وكان جزء كبير من ساحل الجزيرة فى مدخل الخليج تابعاً لسلطنة هُرْمُز وصاحبها فى أيامه قطب الدين تَمَهْتَن بن طوران شاه . وكانت القاعدة فى تلك الأيام هى هرمز الجديدة ، أى: المدينة التى قامت على الجزيرة المواجهة لهرمز ، أما المدينة الساحلية فكانت – كما يقول ابن بطوطة – مُوغ استان .

و« هرمز الجديدة » اسم يُطلَق على الجزيرة ، أما القاعدة فيها فاسمها جَرون ، ويصفها ابن بطوطة بأنها مَرْسَى الهند والسِّند ، ومنها تُحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان ، وهذه المدينة سُكْنَى السلطان .

والجزيرة التى فيها المدينة على مسيرة يوم ، وأكثرها سباخ وجبال ملح ، وهو الملح النارانى ، ومنه يصنعون الأوانى المزيَّنة والمنارات التى يضعون السُّرُج عليها؛ والملح الدارانى ويُسمَّى الذارانى أيضاً وهو الملح الصخرى الذى فى الجبال فى شبه المناجم ، وهو أصلب من الملح العادى أى: البحرى، حتى لَيُسَمَّى بالملح الحجرى ، وكان يُستعمل دواءً ؛ لأنه لم يكن مجرد كلوريد الصوديوم ، بل كانت تختلط به مواد أخرى ، وإلى هذا ترجع صلابته وقلة ذوبانه ، وأكبر مناجمه المعروفة فى أيامنا هذه فى النمسا عند سالزبورج ، ومعنى اسم هذه المدينة :مدينة الملح .

ويقول ابن بطوطة إن طعامهم السمك والتمر المجلوب لهم من البصرة، « ويقولون بلسانهم : خرما وماهى لوت باد شاهى ؛ ومعناه بالعربى : التمر والسمك طعام الملوك » (ص ٢٦٤) .

وقد رأى ابن بطوطة هناك « جمجمة حوت هائل وكأنها رابية وعيناها كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى !» .

ويتحدث ابن بطوطة عن سلطان هرمز وكيف وجده مشغولاً بحرب ابن أخيه نظام الدين بن طوران شاه ! وقد عبر ابن بطوطة البحر من الجزيرة إلى البر ؛ ليزور رجلاً صالحاً ببلد خُنْج بال فاخترق صحراء قاحلة مسيرة أربعة أيام تهبُّ بها رياح السَّموم فى شهرى أغسطس وسبتمبر «فَمَنْ صَادَفَتْهُ قَتَلَتْهُ».

رياح السَّموم

ويذكر هذه الرياح شاردان Chardin فى كتابه «رحلات فى فارس» المنشور سنة ١٩٢٧م ويقول إنها تهبُّ فيما بين ١٥ من يونيو و ١٥ من أغسطس ، وهو وقت الحرارة القصوى فى الخليج ، ويقول شاردان إن تلك الرياح لها صفير مخيف ، وهى تبدو حمراء ملتهبة ، وتقتل الناس وتعصف بهم ، فمن وقع فيها اختنق ، وخاصة إذا أصابته بالنهار . ويقول ابن بطوطة : إن من مات بها بقى على حاله ، فإذا أمسكت بأى عضو من أعضاء جسده خرج معك !

ولم يكن هذا هو الشر الوحيد الذى يَلْقَى السائر فى تلك الصحراء ، بل كان يقطع الطريق بها لص كبير يسمَّى جمال الملك الُّك ومعناه: الأقطع ، وقد تأبَّش إليه نفر عظيم من اللصوص والذُّعَّار ما بين عجم وعرب ثم تاب هذا الرجل وتعبَّد ، ومات وأُقيم له ضريح رآه ابن بطوطة .

ومن هناك وصل ابن بطوطة إلى كوراستان ، ويرى شفارتس صاحب كتاب « إيران فى العصور الوسطى» [1] أن المراد بهذا البلد خورستان التى تسمَّى أيضاً سَرْقِسْتان على نحو ثمانين كيلو متراً جنوب شرق شيراز .

ويقول جيب فى تعليقه على ذلك: إن هذا - إذا صَحَّ - فيكون ابن

(١) الجزء الثالث ص ١٣٣ (Schwartz : Iran in Mittelalter , III . 133).

بطوطة قد أخطأ فذكر اسم ذلك البلد الذى مر به بعد عودته من الهند سنة ١٣٤٧ م عندما قطع خورستان فى طريقه إلى شيراز ، ويضيف أنه من غير المحتمل أن يخطئ عربى فيكتب خورستان بدلاً من كورستان ، إلا إذا كان هذا هو نطق هذا الاسم على لسان أهل الموضع .

لار

ثم وصل إلى لار ، وهى مدينة معروفة بين هرمز وشيراز ، وهو يُثنى على أهلها ويقول إنهم يتبرعون بالخبز لإيواء الغرباء ، وكان سلطان المدينة جلال الدين التركمانى .

خنجبال

ومن هناك قصد إلى خُنجبال ، فزار زاوية الشيخ العابد أبى دلف محمد، وهو زاهد ينفق الأموال العظيمة على أبناء السبيل ، ويذهب بعض الناس إلى أنه ينفق من الكون !

ثم يقول إنه سافر من خُنجبال إلى مدينة قيس ، وتُسمَّى أيضاً بسيراف . وهنا يقع فى خطأ جسيم ؛ لأن سيراف كانت من أعظم موانى إقليم فارس على الخليج ، قرب مدينة طاهرى الحالية .

جزيرة قيس أو كيش

أما قيس - أو كيش - فجزيرة على نحو ١٣٠ كيلو متراً إلى الجنوب ، وقد حلَّت محلَّ سيراف فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم حلَّت هرمز محلَّ هذه الأخيرة فى الأهمية سنة ١٣٠٠م ، ثم حلَّت بندر عبَّاس محلَّ المدن الثلاث فى القرن السابع عشر .

ومن المعروف أن هرمز وقعت فى أيدى البرتغاليين سنة ١٥١٢م ، وظلت فى أيديهم حتى خلَّصها الشاه عبَّاس من أيديهم سنة ١٦٢٢م بمعاونة الإنجليز.

وقد مر ابن بطوطة بهذه النواحى من شرقىّ إيران فى أواخر أيام سلاطينها أبى سعيد بهادر الذى توفى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م ، ولكن المظفرين الذين سيرثون إقليمى فارس وكرمان اللذين مر بهما ابن بطوطة

كانوا فى طريقهم إلى الاستبداد بالأمور . ولكن يبدو من كلام ابن بطوطة أن الأمن كان مستتبًّا فى هذه النواحى والأحوال راضية ، وسيظل الأمر على ذلك بعد وفاة أبى سعيد ، لأن المظفرين كانوا من أقدر حكام إيران خلال فترة أمراء النواحى أو أمراء الطوائف الذين تقاسموا البلاد بعد تفكُّك إيلخانية إيران المغولية .

* * *